مداخلة بعنوان:

الفكر الخلدوني وتشخيص مسألة اعتقال العقل البشري العربي
رؤية تحليلية لسوسيولوجيا المعرفة لبوادر حصون التخلف وعوائق التقدم في الفكر الاجتماعي العربي

الأستاذ:تواتي طارق والأستاذة عامري خديجة
"جامعة بالجلفة/الأغواط"

- *تقديم :*

قد تبدو للوهلة الأولى أن المعرفة والتي تشكل في مضمونها كل من الفن والدين والأخلاق واللغة والخ.... , هي زاوية بعيدة كل البعد عن الواقع الاجتماعي ,كما أن تاريخية هذا الطرح الأخير في العصور الكلاسيكية القديمة حينما نبادر عن التحدث عن المعرفة وكأننا نتكلم عن الفلسفة , إلا أن ظهور الشكل الجديد والذي يبني جسرا ارتباطي بين المعرفة بكل أصنافها والمجتمع , والذي يوضح بان إنتاج الأفكار يتدخل في تكوين كل مجتمع وهذه إشارة إلى متغيرات منظومة المعرفة وفقا لتغاير أنماط المجتمع أو الأنظمة كما يقول سان سيمون فهو يوضح "التضمين المتبادل بين الطرائق المعرفية والبنى الاجتماعية ".

فقد سعى ابن خلدون إلى إبراز التنوع الوافر والتغاير اللامتناهي سواء في الأطر الاجتماعية أو في التجليات المتوافقة مع المعرفة ,وقد قدم جهدا مرموقا في التنظير حول المعرفة والذي استطاع من خلال كتابه " مقدمة ابن خلدون " أن يعطي صورة جديدة تبرز طفرة الفكر الخلدوني المتميز في تلك الفترة والتي تجاوز كل معطيات الركود الفكري السائد في هاته المرحلة في البلاد العربية وتقهقر المدنية العربية .

كما أن جملة المحاولات الفكرية قبل ابن خلدون لا تهدف إلى تفسير المعرفة وديناميكيتها إلا من خلال المعرفة بحد ذاتها وعزلتها عن الواقع الاجتماعي وكأنها نتاجات خارجة عن زاوية البنى الاجتماعية, فكان الفكر يتمحور باتجاه أفقي همه الوصف أكثر من التفسير, إلا أن ابن خلدون قدم نموذج في تفسير المعرفة باتجاه عمودي وذلك من خلال تفسير كل ما هو "اجتماعي بالاجتماعي " ,فهو قدم أيضا تحليلات تقوم على التركيز على الجزئيات في تحليل الظواهر الاجتماعية ,وبالتالي فهو كان سباقا في إنتاج المعرفة في علم الاجتماع وفي التحليل الاجتماعي للمعرفة من منظور علم الاجتماع فهو ربط بين كثرة العمران وتعظم الحضارة وبين العلوم حيث أن الصلة بين العلم والتقدم الاجتماعي هي صلة موضوعية حيث ربط بين المعرفة والمجتمع.

وبالاستناد على منهج علم الاجتماع المعرفة لدراسة نسعى إلى إبراز قصور التي تعاني منه المعرفة في علم الاجتماع بالاعتماد على الربط بينها وبين البني الاجتماعية العربية وبهذا تتمحور إشكالية هاته الورقة في جملة التساؤلات التالية :

- *الإشكالية :*

ما هي أهم تجليات الفكر الخلدوني في نظرية علم الاجتماع المعرفة؟ و ما هي تحليلات الفكر الخلدوني لأسباب ركود إنتاج المعرفة بصفة عامة والمعرفة في علم العمران "علم الاجتماع " في المجتمع العربي ؟ما هي دواعي عزوف المتخصصين في علم الاجتماع المعاصرين العرب في إعادة قراءة الفكر الخلدوني ومدى الاستناد إليه في مسالة المقاربات النظرية لقراءة الواقع الاجتماعي العربي والمغربي بالخصوص ؟ كيف هي الحلول والبدائل لتقديم قراءة جادة وجديدة تبرز أسبقية الفكر الخلدوني للانتاجات المعرفية الغربية في علم الاجتماع وعمق التحليل الاجتماعي تعيد إحياء مخبر إنتاج المعرفة السوسيولوجية بالمغرب العربي؟

من خلال هاته الزاوية نحاول أن نبرز إسهامات الفكر الخلدوني في علم الاجتماع, محاولين أيضا أن نعمد على قراءة ابن خلدون للطبيعة الاجتماعية للعرب والتي تقف ومسالة التقدم والتحضر ,وسنحاول التعمق تحليلات ابن خلدون لكل الأشكال المعرفية من مهن ومدى عمق ابن خلدون في الربط بين هاته الأشكال المعرفية والمجتمع العربي .

ولمساهمة ابن خلدون الثرة في دراسة المجتمع العربي فقد وقع اختيار الباحث على علم اجتماع المعرفة عنده كمشكلة لبحثه، وهي تفصح عن الأهمية .

❖ *أولا : المفاهيم و البناءات والركائز الأساسية في علم الاجتماع المعرفة :*

يقصد بعلم الاجتماع المعرفة بأنه "أولا دراسات الترابطات (**corrélations**) الوظيفية التي يمكن قيامها بين الأنواع المختلفة,بين الدقائق المختلفة للأشكال داخل الأنواع وشتى منظومات (مراتب هذه الأنواع) المعرفية من جهة والأطر الاجتماعية من جهة ثانية اي المجتمعات الشمولية , الطبقات الاجتماعية التجمعات الخاصة وشتى تجليات الاجتماعية (**sociabilité**) (العناصر الاجتماعية الجزئية) ومن بين الأطر الاجتماعية ".([1])

ومنه يمكن تعريف علم الاجتماع المعرفة بأنه دراسة العلاقة بين الفكر الإنساني والسياق الاجتماعي الذي نشأ داخله، والآثار السائدة لأفكاره على المجتمعات، وبالتالي فهو يتناول المسائل الأساسية حول مدى وحدود التأثيرات الاجتماعية على حياة الفرد والأساسيات الاجتماعية والثقافية لمعارفنا حول العالم ,وبالتالي فهو يسعى إلى تبيين علاقة إنتاج المعرفة وبين البنى الاجتماعية فهو بالتالي يدرس بالتفصيل ([2]):

- العلاقة بين المرتبة المتغيرة للأنواع المعرفية , والمرتبة المتحركة أيضا للأعمال الحضارية الأخرى , فضلا عن شتى التعقيدات الاجتماعية (**réglementations sociales**) أو المسماة الضوابط الاجتماعية .
- دور المعرفة وممثليها في شتى أنماط المجتمعات.
- شتى طرائق التعبير والتعميم والتواصل المعرفية ,ذات الارتباطات ذات الارتباطات الوظيفية مع الفعلة الاجتماعيين ,من مستقبلين ومرسلين.
- الانتظامات النزوعية , التباينية من جهة والتلاحمية من جهة ثانية , الشاملة شتى أنواع المعرفة المتطابقة مع أنماط المجتمعات الشمولية ,الطبقات وحتى الجماعات الخاصة في بعض الأحيان.
- الحالات الخاصة بالتباين بين الأطر الاجتماعية والمعرفة, الناشئة عن الاستقطابات والالتباسات والتكامليات الجدلية في علاقتها ,التي تفرض البحث عن السببية الفاعلة ,لكن الفاردة التي تسير تارة في اتجاه تأثير الأطر الاجتماعية على توجه المعرفة وسماتها , وتارة في الاتجاه المعاكس لتأثير المعرفة على حفظ أو انفجار البنى الاجتماعية , وتارة تظهر أخيرا كأنها سببها المتبادل .

❖ *ثانيا: تجليات الفكر الخلدوني في علم الاجتماع المعرفة وتحليل علاقة البنى الاجتماعية بالإنتاج المعرفي :*

"هو عبد الرحمان أبو زيد ولي الدين ابن خلدون ،ولد ابن خلدون في تونس في رمضان عام732ه,الموافق1332م وينتمي إلى فرع من قبيلة كندة وكان أجداده يعيشون في حضرموت قبل الإسلام، دخل أجداده الأندلس، وبسقوط أشبيليا انتقلوا إلى تونس, وفيها درس العربية وحفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ، والفقه، والحديث ودرس العلوم العقلية والمنطق, كما عاش ابن خلدون في بيئة مضطربة سياسيًا وإمارات متنافسة ومتنازعة فيما بينها,قاده طموحه إلى تقلد بعض المناصب منها كاتب ابن إسحاق سلطان تونس عام 752هـ الموافق1351م، ثم انتقل كاتبًا لأبي عنان سلطان فاس

756هـ الموافق 1355م كما تقلد مناصب مختلفة من أهمها كاتب سر السلاطين في غرناطة 764هـ الموافق 1362م ثم انتقل إلى بجاية 766هـ الموافق 1364م وعاد إلى غرناطة 776هـ الموافق1374م، ولم يطل به المقام بها وما لبث أن عاد قافلاً إلى تونس، حيث اعتزل السياسة وتفرغ للإنتاج العلمي، وعزل نفسه في قلعة أولاد سلامة لمدة أربع سنوات، ألّف خلالها مقدمته المشهورة,و غادر بعدها تونس متوجّهًا إلى القاهرة عام 784هـ،1382م .

توفي ابن خلدون عن عمر ستة وسبعين عاما في رمضان 808ه الموافق 1406 وكان حينئذ في وضيفة قاضي المالكية في مصر." ([3]).

إن الاهتمام بتوجيه القراءة لفكر ابن خلدون في هاته الورقة انه وبالرغم من أن التفكير الاجتماعي قديم قِدَمَ الإنسان نفسه، إلاَّ أن الاجتماع الإنساني لم يصبح موضوعًا لعلمٍ إلا في فترة لاحقة، وكان هو أَوَّل مَنْ نَبَّه إلى وجود هذا العلم، واستقلال موضوعه عن غيره، ووضع أسسه، وابتكره، فقد صرَّح في عبارات واضحة أنه اكتشف علمًا مستقلاً، لم يتكلَّم فيه السابقون؛ إذ يقول: "وكأن هذا علم مستقلٌّ بنفسه، فإنه ذو موضوع، وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل, وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال لذاته، واحدة بعد أخرى، وهذا شأن كل علم من العلوم، وضعيًّا كان أو عقليًّا ".

كما أنه لم يكتفِ بذلك، بل دعا القادرين إلى استكمال ما نقص منه، فقال" :ولعلَّ مَنْ يأتي بعدنا –ممن يُؤَيِّده الله بفكر صحيح، وعِلْـــمٍ مُبِينٍ –يغوص في مسائله على أكثر مما كتبنا، فليس على مستنبط الفنِّ إحصاء مسائله، وإنما عليه تعيين موضع العلم، وتنويع فصوله، وما يُتَكَلَّم فيه، والمتأخِّرُون يُلْـــحِقُون المسائل من بعده شيئًا فشيئًا إلى أن يكمل".

ولكن على الرغم من ذلك، وعلى الرغم من قول عالم الاجتماع النمساوي الشهير جمبلوفتش: "لقد أردنا أن ندلِّلَ على أنه قبل أوجست كونت، بل قبل فيكو الذي أراد الإيطاليون أن يجعلوا منه أول اجتماعي أوربي، جاء مسلم تقيٌّ، فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل مُتَّزِنٍ، وأتى في هذا الموضوع بآراء عميقة، وإن ما كتبه هو ما نسمِّيه اليوم علم الاجتماع .على الرغم من ذلك كله، فإن التأريخ لعلم الاجتماع يقف عند الفرنسي كونت باعتباره المنشئ الأول لهذا العلم، ويتجاهل بذلك المؤسِّس الحقيقي لهذا العلم، الذي نبَّه عن وعي وفي وضوحٍ إلى اكتشافه لهذا العلم".([4])

إضافة إلى هذا فان ابن خلدون فهو" أول مفكر شعر بضرورة التفكير الجدي حول ظاهرة المعرفة في المجتمع"([5]) فكانت الطروحات التي قدمها ناتجة على طفرة فكرية بارعة شهدها العقل العربي وهذا لحدود التقهقر التي شهدتها المدنية العربية في هاته المرحلة موازاة مع مرحلة القرون الوسطى في أوربا ,وفي هاته الفترة الزمنية انطلقت شرارة الفكر العربي ساعية كل الجهد إلى تحليل وتنظيم الفوضى الاجتماعية العامة فكان فكره موجها نحو المستقبل .

فابن خلدون ربط إنتاج المعرفة بالبنى الاجتماعية وذلك من خلال ربط فكرة الصنائع بالعلم حيث يقول "لا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة الى الفعل بالاستنباط شيئا فشيئا على التدرج حتى تكتمل ولا يحصل ذلك دفعة واحدة وإنما يحصل في أزمان وأجيال,....لاسيما في الأمور الصناعية فلابد له من زمان ولهذا تجد الصنائع في الأمصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها إلا البسيط فادا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع ,خرجت من القوة إلى الفعل "([6]) ويرى ابن خلدون أيضا أن الصنائع إنما تكمل بكمال العمران الحضري وكثرته "إن الناس مالم يستوف العمران الحضري وتتمدن المدينة إنما همهم في الضروري من المعاش ...في العمران البدوي والقليل فلا يحتاج من الصنائع إلا

البسيط خاصة من المستعمل في الضروريات " ([5]) ويرى أيضا ابن خلدون في أن الصنائع إنما تستجاد وتكثر إذا كثر طالبها" لذا لم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجد قصد إلى تعلمها فاختصت بالترك وفقدت بالإهمال".

ويؤكد ابن خلدون أن العرب ابعد الناس عن الصنائع والسبب في ذلك " أنهم اعرق في البدو وابعد عن العمران"([7]).

من خلال ما تقدم يبرز ابن خلدون تلك العلاقة الترابطية بين التحضر العمراني وبين العلم ,لان تقدم الذي يشهده العلم في حركة موازية للتقدم الاجتماعي بجميع نواحيه ,فهو يؤكد أن الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري ,فظهور صناعة ما يراه مرتبط بالأساس بشكل الوسط الاجتماعي بدوي أو حضري ,لان ظهور صناعة ما مرتبط بكثرة الطلب عليها والحاجة إليها , ويوحي هذا الأمر أيضا كما يرى ابن خلدون إلى تاريخية تطر الفكر الإنساني من ان الصنائع والعلوم إنما هي للإنسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات ,ويرى أن الصناعة كإنتاج فكري يمكن ان تتطور وتظهر في الحضر وذلك لاكتفاء في البسيط من الضروريات الذي يزال عائق لتطور أشكال الصنائع في المجتمع البدوي لان الانتقال من البدو الى الحضر هو انتقال في إشباع حاجيات العيش البسيطة والضرورية إلى الكماليات .

فيرى ابن خلدون إن صناعة الطب محتاج إليها في الحواضر أكثر من البداية لان شكل المدينة أكثر تحضر يحتاج إليها .

- *ثالثا : ابن خلدون وتشخيص المعرفة و البنى الاجتماعية العربية :*

ويرى ابن خلدون في أن العلم والتعليم من جملة الصنائع ويحلل ابن خلدون البيئة العربية آنذاك و إنتاج المعرفة فيقول "اعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد ان ينقطع عن أهل المغرب ,باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك من نقص من الصنائع وفقدانها كما مر , وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس , واستبحر عمرانها , وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما , وما كان فيهما من الحضارة , فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلا....وبقيت فاس وسائر أقطار العرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان, ولم يتصل سند التعليم فيهم .....وإما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه...فأهل المشرق على الجملة ارسخ في صناعة تعليم العلم بل وفي سائر الصنائع....وإنما العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعاظم الحضارة فمتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم,انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان,وهي العلوم والصنائع...ونحن لهذا العهد نرى ان العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة ...فاستكثروا بناء المدارس والزوايا والربط ...وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها الأسواق العلوم وزخرت بحارها " ([8]).

مع ابن خلدون لم تعد هنالك علوم بدون مجتمع , وبالتالي أجاد في غاية من البساطة مستوفيا إلى الحقائق التي لم يهتم بها علماء الاجتماع الغرب والذين ظلوا لفترة طويلة في مسيرة حياة علم الاجتماع ونشأته الغربية يركزا على القضايا الميكروسوسيولوجية إلا أن ابن خلدون اهتم بالقضايا الجزائية والمعروفة اليوم بالماكروسوسيولوجية , ومثال ذلك تحليله لمسالة صناعة الغناء "هذي الصناعة هي تلحين الإشعار الموزونة,بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ,يوقع على كل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة...أما العرب فكان لهم أولا فن الشعر يؤلفون فيه الكلام أجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة حروفها المتحركة والساكنة"([9]).

إن إبراز ابن خلدون لشكل العلاقة الترابطية بين العلم والتقدم الاجتماعي كان بشكل غاية في البساطة والوضوح معتمدا على طرح يسعى إلى تفسير كل ما هو اجتماعي بالاجتماعي ,وانصب تحليله على البيئة العربية (المغرب والمشرق)

محللا العلاقة بين البناء الاجتماعي ومستوى المعرفة ,فقد طرح ابن خلدون على نفسه سؤالا "لماذا ناقلو العلوم في الإسلام هم معظمهم من غير العرب ؟ وكان الجواب الذي قدمه مفسرا لهذه الظاهرة يتمحور في اتجاهين : من ناحية كان يعتبر أن الجماعة الإسلامية لا تعترف العلوم ولا المهن بسبب واقعها المبتذل والبدوي , حيث أن البدوي ليس لديه من هم حقيقي سوى الذي يتعلق باستمراريته في الحياة ,إذ ماذا ينفعه العلم أو احتراف المهن, في حين انه لإدخال العلوم والمهن في صلب حياته اليومية يجب أن يتمدن ,ويقول ابن خلدون " أن معظم العلماء الأجانب ينتمون إلى بيئات مدنية متحضرة ,كان لابد للجماعة الإسلامية العربية من أن يستعينوا بهم , هذه العناصر أوكلت أولا بالترجمة إلى اللغة العربية "([10]).

تبرز من خلال ما سبق الوظيفة الحضارية للعلم عند ابن خلدون و الذي كان له منهجيته وتصوراته وتحليلاته الفردية ونظر إلى العلم والتعليم كظاهرة طبيعية في المجتمع الإنساني، وقد قال عن وظائف العلم :

– دور العلم وفضله على صعيد الأفراد : إن العلم يؤدي العلم وظيفة حياتية معيشية كون الصناعات التي هي إحدى وسائل الرزق وكسب القوت والصنائع، بالإضافة إلى انه ينظر إلى تعليم العلم عبارة عن صناعة قائمة بذاتها، لها غرض اقتصادي معيشي وغرض فكري إنساني، واهم صناعة في العلم اكتساب ملكته .

– الوظيفة الحضارية، الاجتماعية، العمرانية للعلم : هناك علاقة طردية بين والعمران البشري، فان عمران الأرض والانتقال بالمجتمعات من طور البداوة إلى طور التحضر يقتضي تطور كمي ونوعي في الصناعات، كما أن العكس صحيح، إن التطور في الصناعات يؤدي بدوره إلى دفع المجتمع البشري إلى التطور والتحضر والعمران , ويؤكد أن تدهور الحياة الحضرية يعكس اثارا على نمو المهن والعلوم.

إن ابن خلدون في تحليلاته للبيئة العربية الإسلامية ,والتي جعلته يتجه نحو ظاهرة العلماء الأجانب ذوي الأصول الحضرية والمدنية , هي تحليلات نابعة من صلب المجتمع العربي الإسلامي فقد اكتشف أمرين مهمين يختص الأول بأمور العلوم والثاني باضمحلالها فبالنسبة له حيث يكون تواصل في المدنية يوجد بشكل مواز موفي حركة المهن والعلوم فالتحضر في المدن الكبرى يهيئ الظروف المناسبة لنمو العلوم فالتفسير الحقيقي والواقعي لازدهار العلوم في العواصم العربية (بغداد البصرة كوفة) في تواصل الحركة التحضرية التي عرفتها المنطقة ,في صياغ أخر يرى أن هنالك أثارا سلبية تنجم عن تراجع المدنية وخاصة في تراجع الملازم للعلوم والمهن.

والنتيجة التي توصل إليها ابن خلدون تقدم العلوم مرهون بالحركة الداخلية للمجتمع ,فقد أوضح أن " العلم والمعرفة يعيشان في علاقة موضوعية مع المجتمع وينموان مع المدنية ويتقهقران مع نقيضها"([11]).

نستخلص انه هنالك سلسلة من الأفكار القيمة في فكر ابن خلدون نجيزها فيما يلي :

- الأول في إرجاعه إلى حظيرة الأشكال الاجتماعية السائدة(بدوية أو مدنية) العلم والمعرفة ,والأول من تكلم عن الأسس الاجتماعية للمعرفة والعلم.رغم أن انه لم يعمل على تعريف مختلف أشكال المعرفة,بيد انه ليس المسالة غريبة عنه عندما يتكلم عن المعرفة فهو يحرص على التلميح إلى التبدل في أشكالها الناجم عن الديمومة او القطع في الأشكال الاجتماعية السائدة.فهو يتحدث عن أولوية العنصر الاجتماعي على العنصر المعرفي .
- كما يبدو تفكيرا غنيا عندما يتكلم عن العملية المزدوجة المؤدية إلى انتقال المعرفة ,ففي حركة أولى نشهد انتقال كمية من المعرفة والعلم وفي حركة ثانية نشهد انتقال نوعية ومعرفة ومنفتحة في موقع مستقل نسبيا بالنسبة الى كمية المعرفة المكتسبة لاعبة دور البنية الجاهزة لاستيعاب عدد من البنى الأخرى , أن سمة الانفتاح للمعرفة هي مفتاح العملية

الجديلة التي تتم بين المعرفة والمجتمع.تتقاسم المعرفة مصير الشكل الاجتماعي الذي توجد فيه , غير أنها من جهة أخرى تشكل المثير الذي يدفع بالمجتمع إلى الأمام ,أنها تعطي للشكل الاجتماعي إمكانيات انفتاح جديدة, هذه الإمكانيات تعمق حركة المدنية ,بالمقابل عندما تهمل المعرفة فإنها تنشط تقهقر المدنية .

ابن خلدون الذي شهد تدهور المدنية العربية في التجزؤ اللامتناهي للسلطة السياسية بشكل عام في غسق القرن الرابع عشر , جملة من الأسئلة المهمة كيف تتكون الأشكال الاجتماعية وتنهار ؟كيف تتكون وتنهار المدنيات؟ كيف تتشكل المعرفة في شكل اجتماعي محدد؟

- أن المعرفة يعتبرها ثمرة شكل اجتماعي معين , تؤثر بدورها على الشكل الاجتماعي المولد لها أن الرباط بين المعرفة والشكل الاجتماعي هي علاقة تأثير متبادل بينهما,فمسح تضاريس الواقع تعل المجتمع أكثر معرفة وفي نفس الوقت أكثر قدرة على معارف جديدة.
- إن المعرفة تتسم بطابع تاريخي ضروري أكان ظاهر أم غير ظاهر ومحاولة إرجاع المعرفة والعلم الى حظيرة التاريخ بواسطة عملية حشر موضوعية في حركة أشكال الاجتماعية في طور التغير كان هذا هم ابن خلدون الدائم والرئيسي وأوضح أن هنالك درجات في الشكل الاجتماعي المعني في التاريخ فالذي يفسر التغيرات في الأشكال الاجتماعية هو التاريخ حيث ابن خلدون هو اول من فسر حركة التاريخ في حركته الجدلية على الرغم من العصر الذي عاش فيه لم سمح له بتحليل السياق وبالتقاط التمفصلات إلا على مستوى الانتقال من حياة البداوة عند العرب إلى مختلف أشكال الحياة المدينية.
- استطاع أن يقوم بتشخيص البنى الاجتماعية وإنتاج المعرفة داخل المجتمع العربي محددا المفارقات بين المغرب والمشرق ومحددا أسباب تقهقر ,ساعيا إلى تقديم البنى الاجتماعية العربية ونماذج انتاج المعرفة التابعة لها , ساعيا في صياغ أخر إلى تقديم حل هو يكمن في دور العجم في إنتاج المعرفة ونقل المهن الى المجتمع العربي وليس هذا من باب التاثر بالعجم وانما لتوضيح عوامل المعرفة المنتجة في ضياغ المدنية في دول العجم في تقدم تلك الدول , ساعيا الى بث روح تنمية فكرية تنتج عن المدنية وعن اكتساب المعرفة والانتقال من الشكل البسيط للمعرفة التي تشهدها الدول العربية الى الشكل الذي يسعى الى اكتساب المعرفة العلمية .

أن الأجوبة التي يأتي بها ابن خلدون هي مقدمات واسعة تحمل كثيرا من الجديد,خارقة قلب علم الاجتماع المعرفة ,أنها طبعا غير كاملة ولا يمنع أن تكون قاعدة انطلاق أساسية ومميزة ,أن أجوبة ابن خلدون تحمل في طياتها أسئلة أخرى , تتميز في ما تحمل من أبعاد تخص المجتمعات المسماة العالم الثالث.اليوم , حيث أشكال المعرفة على الرغم من أهميتها لازالت إلى حد الساعة بعيدة غير معروفة.

هكذا نجد ابن خلدون في صياغة بسيطة وسابقة للفكر الغربي في ربط البنى الاجتماعية بالمعرفة ,ورؤية حضرية متجاوزة لدهره ساعية إلى إنتاج نموذج ساعي إلى تحقيق التنمية بمفاهيمها الحالية ,التي تهدف إلى تعديل التضاريس المتعرجة في البنى الاجتماعية التي تعيق إنتاج المعرفة بكل إشكالها كما استطاع إيجازا وتبسيطا وإيضاحا تقدم مشروع الساعي الى فهم وتفسير الاجتماعي بالاجتماعي ,بغية معرفة أن إنتاج المعرفة لا يقف عند المعرفة في حد ذاتها وهذا ما شيع في الفلسفات التي أجاد قراءتها ابن خلدون وتمحيصها ,بل هو انتاج بعدي وتابع للبنى الاجتماعية ,وهكذا نجد مشروع تنمية الاجتماعية لابن خلدون لازال لحد الساعة يعيد قراءته لواقعنا الحالي .

رابعا :الفكر الخلدوني والنظرية السوسيولوجية الحديثة :

إن الحديث على النظرية السوسيولوجية الحديثة وإرجاعها إلى الفكر الغربي هذا يشكل خرقا لقوانين البحث العلمي وما تتطلبه من أمانة علمية , قد يكون هذا جانبا من جوانب تحليل ابن خلدون للمجتمع العربي كما أسلفنا سابقا والبعد الحضري عن إنتاج المعرفة ,أو تناسيا وتباعدا من السوسيولوجين العرب المعاصرين الذين أفرطوا في التقليد الأعمى للفكر الغربي و سعيا قد يكون بغير وعي منا في دخص الفكر السوسيولوجي الخلدوني ونثر الغبار عليه ,رغم هذا وذلك فقد أسهم بعض الباحثين السوسيولوجين في إنارة الفكر الخلدوني السوسيولوجي وإحيائه من اجل إعطاء بصمة الأحقية والأسبقية لابن خلدون في هذا العلم وسنعمد فيما يلي على توضيح بعض أفكار السوسيولوجين الغرب وطروحات المماثلة والمتجاوزة لتلك النظرة القاصرة التي تعمدها سوسيولوجين المؤسسين لعلم الاجتماع وفق تحليلات الأستاذ الدكتور نور الدين حقيقي في النماذج الموالية :

- **الخلدونية ونظرية إميل دوكايم :**

يعتمد إميل دوكايم إلى طرح نموذجين " المجمعات القديمة حيث يكاد تقسيم العمل أن يكون معدوما والمجتمع الحديث حيث يزداد هذا التقسيم باستمرار وهو يعترف بقيام عصبية يطلق عليها اسم "التضامن الآلي " ولقد اشار ابن خلدون في العمران البدوي روابط التضامن الالي في العصبية وليس فقط على الشعور بالتشابه كما يقول دوركايم اما في العمران الحضري (التضامن عضوي)تبعا لمفهوم دوركايم نابع من شعور التكامل المتبادل بين الافراد.

ولقد علل ابن خلدون الانتقال من العمران البدوي باعتماد مقياس تاريخي حاسم ممثل في عصبية البدو بينام يكتفي دوركايم بتنبيهنا الى ان الانتقال من التضامن العضوي الى الالي تكون نتيجة التطور الانساني أي حصيلة تقويم الفرد التدريجي الذي يغدو ضروريا بحكم تقسيم العمل الاجتماعي ويعتبر ابن خلدون حضارة العمران البدوي تعتبر عن تراجع العصبية وتراجع الدولة خصوصا .

إذا ان ابن خلدون يحلل العوامل الاجتماعية وفقا لمفهوم تفكك السلطة الحضارية لا وفقا لمفهوم التطور والتقدم.
(12)

وقد أسهم الأستاذ الباحث نور الدين حقيقي الى اعتماد على تحليل جملة من المقارنات التي تعمد الى تحليل الفكر الخلدوني في علم الاجتماع و عدد من المنظرين في علم الاجتماع الغرب محدد الفروقات السابقة للتحليل والمتجاوزة تاريخيا وأيضا في عمق التحليل السوسيولوجي الخلدوني معتمدا على محطات عدة لتحليل محتوى الفكر السوسيولوجي الغربي والخلدوني فقد تناول الخلدونية والسلطة الحضارية وسان سيمون والسلطة الصناعية اوضح فيها قصور التحليل الأخير ,كما تناول الأستاذ أيضا عرضا لمفهوم "النخبة" عند باريتو ومفهوم النخبة المماثل عند ابن خلدون في القرن الرابع عشر ,وكذا تناول الخلدونية والوضعية عند كونت الذي يرى فيها هذ الأخير مراحل التاريخية للسلطة معتمدا على تقطع في تسيير عملية الأحوال الثلاثة , عكس ابن خلدون الذي يرى أن التقدم هو حصيلة تراجع العصبيات وتفكك العمران الحضري .

وسنعمد في الأخير إلى جملة من التوصيات في هاته الورقة نرى بأنها كفيلة في إحياء الفكر السيوسيولوجي العربي والمغربي بخصوص يراها الباحثان كفيلة بإنتاج سوسيولوجيا عربية غير غربية :

- ✓ **اعتماد مادة تدرس ضمن المناهج في التعليم العالي تخص علماء الاجتماع العرب وخاصة ابن خلدون .**
- ✓ **إلزامية الطلبة على الاعتماد على النظرية السوسيولوجية لابن خلدون وعلماء العرب في البحوث الميدانية.**

- ✓ تكثيف الملتقيات والأيام الدراسية حول التعريف بالفكر السيوسيولوجي العربي.
- ✓ تشجيع الباحثين على تقديم قراءات ودراسات حول الفكر السوسيولوجي العربي.
- ✓ اعتماد الترجمات للفكر السوسيولوجي إلى لغات أجنبية.

الخلاصة :

انطلق ابن خلدون من مبدأ مفاده أن ثمة رابطا عضويا يقوم بين ما نسميه تجليات المعرفة وبين المجتمع وحياته ككل فيرى أن حياة العلوم والمعارف مرتبطة بالحياة الاجتماعية التي تحتضنها وتبلورها. من هنا فإن الثقافة، في نظره، مادة حية ومتحركة.

ربما أن المسألة باتت اليوم بديهية، لكن قبل ستة قرون إلى الوراء لم يكن أحد قد طرح هذه الفكرة، لا شرقًا ولا غربًا .

- ✓ لا مكان للعلوم خارج المجتمع :

فلنطلع على ما يقوله ابن خلدون حرفيا قبل أن نتوسع بالشرح. يقول» :إن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة، والسبب في ذلك أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة، والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة والكثرة، لأنه أمر زائد على المعاش.

فمتى فصلنا أهل العمران عن معاشهم، انصرفت إلى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الإنسان، وهي العلوم والصنائع» . ([13])

فلو أخذنا مثل البدو والرحل، سوف نلاحظ أنهم، حتى بعد تأمين معاشهم، لا يتوقون إلى بلورة علوم وصنائع. فالمسألة إذن تتعدى تأمين الاكتفاء المعيشي لترتبط بالبنية الاجتماعية الاقتصادية ككل.

يفترض ابن خلدون – عن حق – أن العلوم والصنائع (أي المعارف كما نسميها اليوم) موجودة عند كل الناس وجميع المجتمعات. فهو يعتبر أن «خاصية الإنسان هي العلوم والصنائع». لكن الفرق يكمن في أن ثمة بنى اجتماعية، كالبنية الحضرية، المتمثلة بالأمصار، تعمل على بلورة هذه المعارف، وأخرى، كالبنية البدوية، تكتفي بتأمين معاشها ولا تسعى لبلورة العلوم والصنائع.«

نستخلص من التحليل الذي يقدمه ابن خلدون، وهو تحليل مبني منهجيًا على ثنائية عمرانية، أن شكل العمران البشري هو المسئول عن تقدم أو تأخر العلوم في المجتمعات. فالشكل البسيط للعمران، أي شكل العمران البدوي، غالبًا ما يترافق مع غياب للعلوم وتأخر في المعارف.

في المقابل، فإن شكل العمران المركّب، أي العمران الحضري، يترافق مع ازدهار للعلوم والصنائع والمعارف، ذلك «أن العلوم تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة, وبذلك يكون ابن خلدون قد أوجد التفسير لمسألة كانت مستعصية على المفكرين قبل ذاك.

حيث إن العودة إلى شكل العمران البشري (حضري أو بدوي) هو الذي يسمح بفهم تقدم أو عدم تقدم العلوم والصنائع، ومعها المعرفة ككل، في المجتمعات .فالمجتمعات التي يغلب عليها العمران الحضري هي بيئات مناسبة لتبلور المعارف وتقدمها، في حين أن المجتمعات التي يغلب عليها الطابع البدوي، هي مجتمعات كابحة لتقدم المعارف، ذلك (أن الصنائع إنما تكثر في الأمصار، وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقلة، والحضارة والترف، تكون نسبة الصنائع في الجودة).

نلاحظ أيضا أن ابن خلدون لا يميّز بين الصنائع والعلوم، بل يضعها على قدم المساواة, ولا عجب في ذلك، حيث إن مفهوم العلوم النظرية الصرف الذي تبلور خلال القرن التاسع عشر في أوربا، ظاهرة نسبية.

ففي عصر ابن خلدون لم يكن هناك فرز بين العمل العلمي الفكري والعمل العلمي اليدوي, فكان الحرفيون المهرة، وبخاصة المعلمون من بينهم، يعملون وينتجون بفكرهم وأيديهم على حد سواء، بحيث لا حدود مصطنعة بين العلم والمعرفة، أو بين أهل العلم وغيرهم من أهل الإنتاج.

فالحقل المعرفي الأساس، في نظر ابن خلدون، هو حقل البنية الاجتماعية التي يطلق عليها تسمية العمران البشري.

من بنية المجتمع إلى بنية المعرفة

ثم يتابع ابن خلدون تحليله لمسألة المعارف والعلوم فيلاحظ أنها تغنينا على مستويين:

- المستوى النوعي (حيث تكسبنا كمية من المعلومات الجديدة.
- المستوى الكمّي (حيث تكسبنا بنية فكرية جديدة.

لا حاجة في أن نشرح ما يقصده العلامة ابن خلدون بالكسب الكمي للمعارف والعلوم, أما في ما يتعلق بالكسب النوعي للمعارف والعلوم، فنلاحظ أن مفكرنا كان عميقًا جدًا في طرحه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى خطأ ارتكبه العديد من المستشرقين الذين اعتبروا أن السقف الفكري للفلسفة والتفكير العربي كان سقف الفكر اليوناني .في حين أننا سنلاحظ بعد قليل أن الفكر العربي قد تمكّن مرّات عدة من تخطي ما توصل إليه الفلاسفة اليونانيون الذين لم يتخطّوا أشكال المنطق الصوري المعروفة. فقد قام على سبيل المثال ابن خلدون باختراق المنطق الصوري (الذي كان مطلعًا عليه بطبيعة الحال) ليلوج إلى ما يعرف اليوم بالمنطق الجدلي.

يقول ابن خلدون: (إن الحضر لهم آداب في أحوالهم في المعاش والمسكن والبناء وأمور الدين والدنيا. وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم. فلهم في ذلك كله آداب. وهي صنائع يتلقاها الآخر عن الأول منهم .ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع فيها إلى النفس أثر يكسبها عقلا جديدا تستعد به لقبول صناعة أخرى، ويتهيأ بها العقل بسرعة الإدراك للمعارف) . ([13])

لا أعتقد أن السويسري جان بياجيه، المتخصص في دراسة آليات الذكاء عند الطفل، كان ليقول أفضل من هذا الكلام. مع العلم أن جان بياجيه ينتمي إلى القرن العشرين في حين أن ابن خلدون قد سبقه في ما قاله بخمسة قرون ونيّف.

فهذا «العقل الجديد» الذي يتكلّم عنه ابن خلدون يشار إليه اليوم بمصطلح البنية المعرفية. فالمعارف والعلوم تتميز في أنها تكسبنا، في آن معًا بحسب ابن خلدون، كمية من المعلومات الجديدة وانفتاحًا ذهنيًا على معارف وعلوم أخرى.

فالعملية المعرفية لا تكسبنا اطلاعًا على كمية من المعلومات الجديدة فحسب، بل تولّد فينا أيضا شهية فكرية لتقبّل معارف أخرى واستعدادا ذهنيا للذهاب أبعد من الكمية المكتسبة.

وقد أكد الشيء نفسه عالم الاجتماع الأمريكي المعروف بيتيريم سوروكين في كتابه الدينامية الاجتماعية والثقافية حيث تكلّم، في الاندماج، عن شكل الاندماج الثقافي المنطقي – المعبّر, الذي اعتبره أرقى أشكال الاندماج الاجتماعي والثقافي.

ففي رأيه أن ميزة المعرفة تكمن في أنها تسمح للعقل بالانتقال، بنيويا، من عالم إلى عالم. فالعالم بالموسيقى يلتقي مع العالم بالرسم أو الرقص أو حتى الرياضيات أو الأدب دون أن يتعلّم بالضرورة لغة كل علم من هذه العلوم. فهو على استعداد لإدراكه وهذا ما يكفي.

ومفهوم «العقل الجديد» الذي تُكسبنا إياه المعارف والعلوم والصنائع بحسب ابن خلدون هو مفتاح تفسير تطور المعرفة وتبلورها عبر العصور, فلو أن المعرفة عند الإنسان كانت تقتصر فقط على مجرد تسجيل معلومات، لما تميّزت بطابعها الدينامي والحي, ولاتسمت بالطابع التكراري.

فالفرق بين المعرفة عند الإنسان والمعرفة عند الحيوان أو الحشرة، يكمن هنا بالتحديد، في هذا الفارق النوعي الذي لا يكدّس المعلومة اللاحقة فوق المعلومة السابقة، بل يجعل من المعلومة معرفة حية تدفع العقل باتجاه اكتساب معلومات فمعارف أخرى إلى ما لا نهاية.

من هنا فإن معرفة أجدادنا في البشرية، آدم وحواء، لا تشبه المعرفة التي نمتلكها اليوم، ذلك أنّ كل جيل من الأجيال أضاف على المعرفة شحنة نوعية جعلتها تنتقل إلى الجيل الآخر بحلّة جديدة، بشكل ومضمون جديدين في كل مرة, فسرّ التقدم الثقافي عند البشر يقوم على هذا «العقل الجديد» الذي نكتسبه في كل مرة نتزوّد فيها بمعلومة أو معرفة جديدة. وإلا لكانت ثقافتنا صورة طبق الأصل لثقافة أجدادنا وأسلافنا.

فلو نظرنا إلى ما يحصل في عالمي الحشرات والحيوانات للاحظنا مباشرة أنّ ما ينقصها – حتى عند أذكى الأصناف عندها – هو تحديدا «العقل الجديد «الذي تكلّم عنه ابن خلدون. فالحيوان يحيل كل المعلومات إلى غريزته التي تصنّفها إلى مقبولة أو غير مقبولة بحسب ما هو مسجّل فيها، فإن تطابق مع هذا السجل المرجعي الكبير الذي تشكّله الغريزة، حاز القبول، وإلا فلا.

فإن قدّمت للحيوان طعامًا لا يلقى رضى غريزته، يرفضه مباشرة ولا ينظر في أمره، حتى لو كانت له فوائد علمية وبيولوجية جمّة. وإن وضعت عطرًا اصطناعيًا للورد على عود خشب، يقصده النحل بعناد، حاسبينه وردة فيها رحيق.

فالمعرفة الحيوانية تراكمية، تكراريّة، غريزية، يحكمها منطق مغلق وواحد، في حين أن معرفة الإنسان تركيبية، غير تكرارية، ذهنية، ومفتوحة على الاستزادة بشكل مطرد ودائم. فبإمكان الإنسان أن يزداد علمًا، ذلك أن المعرفة عنده عمليّة ذهنيّة ديناميّة وحيّة، أما عند الحيوان أو الحشرة فهي مغلقة وموصدة بإحكام.

فـــــ«العقل الجديد»، الخلدوني، يحوّل المعلومة المعرفيّة من ماهيّة كميّة إلى ماهيّة نوعية,كما أنه يضع المعلومات في موقع بنيوي، فيه سابق وفيه لاحق. مع الإشارة إلى أن المعلومة اللاحقة ليست قائمة في الواقع، بل إنها استعداد بالقوة لاكتساب معلومة مشابهة جديدة.

من هنا تنشأ حركة حلزونيّة، جدليّة، ننتقل فيها مما نعرفه إلى ما لا نعرفه بشكل طبيعي، وقد تمكّن العلاّمة ابن خلدون من أن يدرك أن كل معلومة تنتقل إلى الذهن البشري هي على النحو الآتي: معلومة زائد بنية لمعلومة استعداديّة، جديدة. وتشكّل هذه البنية المعرفية، بانفتاحها، استعدادًا لاستيعاب المزيد من المعارف، فكلّما تعلّمت شيئًا في مجال الأدب فهمت أكثر ما يتعلّق بمجال الرسم أو الموسيقى أو حتى الرياضيّات (فتركيب اللغة منطقي وفيه معادلات شبيهة بتلك التي نجدها في العلوم). كلما انفتحت على علوم جديدة، انفتحت أمامي علوم لم أكن لأتصوّر أنه بإمكاني استيعابها .ذلك أن في ذهن الإنسان قنوات متصلة بين جميع الزوايا والمدارك.

فالمعارف تصبّ كلها، في نهاية المطاف، في عملية واحدة لخّصها ابن خلدون بكلمة (العقل الجديد).

بلغ ابن خلدون من خلال مفهوم العقل الجديد مستوى من التجريد لم يبلغه أحد قبله، في جميع الثقافات المعروفة في عصره وقبله, فالمعرفة، كما يحددها، تتميّز بمكوّنين: مكوّن مادي (المعلومة)، ومكوّن غير مادي (المعلومة الاستعدادية).

فالمعلومة الاستعدادية، موجودة في عقل الإنسان، لا في المعلومة التي تبلغ ذهنه أو وعيه. فلو كانت موجودة في المعلومة ذاتها، لأدركها واكتسبها الإنسان والحيوان والحشرة على حدّ سواء.

لكن كونها موجودة في ذهن الإنسان، المتلقي الحي لها، تتحول مباشرة إلى استعداد لاكتساب معلومات ومعارف أخرى سمحت للإنسان، من جملة ما سمحت به، بأن يصل إلى القمر.

أما عند الحيوان فالغريزة، كشكل جامد للوعي، فيتم تلقي المعلومة بشكل غير حي. وبالتالي لا تفاعل معها ولا تلاقح ذهنيًا ولا استزادة بالمعرفة.

كل ذلك تمكّن ابن خلدون من فهمه في قلعة ابن سلامة، في الصحراء المغربية، عام 1375م، فدوّنها ونقلها إلينا في المقدمة، لكننا لم نعمل على تطوير مفهومه هذا ولا نظريته منذ ذلك الحين، بحيث أضحت اليوم النظريات التربوية والنظريات المعرفية كلها من إنتاج مراكز الأبحاث والجامعات في الغرب.

قائمة المراجع المعتمدة:

1-جورج غورفيتش,الاطر الاجتماعية للمعرفة,ت خليل احمد خليل,ط3,مجد المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع, بيروت, لبنان,2008,ص22.

2-المرجع السابق,ص22.

3-عبد الرحمان بن خلدون ,مقدمة العلامة بن خلدون,دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع,بيروت ,لبنان,2008م,ص5.

4-انترنيت .http://islamstory.com

5-معتوف فريديك,تطور علم الاجتماع المعرفة من خلال تسعة مؤلفات أساسية,دار الطليعة للطباعة والنشر, لبنان,1972.ص12.

6- عبد الرحمان بن خلدون,مرجع سابق,ص404.

7- المرجع السابق,ص405.

8- المرجع السابق,ص.ص406-407.

9- المرجع السابق,ص.ص439-442.

10- المرجع السابق,ص.433

11- معتوف فريديك,مرجع سابق ,ص14

12-عبد الرحمان ابن خلدون,مرجع سابق,ص434.

13–نور الدين حقيقي,الخلدونية : العلوم الاجتماعية وأساس السلطة السياسية ,ت الياس خليل , منشورات عويدات , بيروت ,باريس,ص**48**.

14–المرجع السابق,ص**434**.